

رياضة الجبل

كل رياضة لا ينمو بها الجسم والعقل وأُخلق جميعاً تفقد ركناً من أركان القوة التي يجب أن تتوافر في الرجل السليم . فإن اشتد ساعده وهانت بصيرته فما هو بسليم ، وإن نما عضده وعقله وسقطت همته فما هو بسليم ، وإن كبر عقله وتضاءل عزمه وجسمه فما هو بسليم . . . ولقد حسب الذين أصابهم الكبر قبل أن يبلغوا أجله أن الرياضة لعب وهو ، وأن الحياة وقار ، وأن الوقار جمود ، وحملوا بنهم وبناتهم على أن يتخلقوا في ربيع الشباب بخلق الشيوخ . . . ثم سئموا بعدها تكاليف الحياة واستذلهم العجز والحول فلا ينهضون لخير ، وهرمت أمم مختارة ، واستمتع غيرها بالشباب والقوة والنهوض والعزم . . .

ولقد سألت نفسي في مطالع الجبل سؤالاً أبدياً فيه ثم أعيد ، عسى أن أجد وجه الصواب فيه لا ظالماً ولا مظلوماً . . . كيف يبصر وجه الحياة من شباً مكتوفاً في منازل العسر والجهل ، وإن أبصر وجه الحق ضاقت حيلته ، ولا يسمع مرشداً يحبّه ولا هادياً يهديه . والإنسان معدن قد يففل فيتراكم عليه التراب وقد يقدد السيف فيكون حيّاً صارماً . . . وكيف يبصر جانب الحق شباب لا يسأل نفسه عن شيء ولا يسأله سائل عن شيء ، فركب من الحياة مركباً هيئناً ، ونعم بنعمة الظل في مطلع الربيع ، فذبلت زهرته التي لا تستقبل حرّ الشمس ؟ . . . إن الإنسان فقير أبد الدهر إلى النور . . . فإن لم يأت نور من علم أو معرفة أو هداية أو تجربة ، نظر بعينه فلا يبصر ، وأصغى بأذنيه فلا يسمع . . . وكان حقاً على القوى أن يضىء ظلام الضعيف ، وعلى العارف أن يهدي سبيل الضال . « فمثل رجل رأى ضالاً فهدها الطريق كمثل الذي يضىء للناس من مصباحه فيعيش الناس في ضياء ، ولا يمنع ذلك مصباحه من أن يضىء » .

ومن أولى بنشر ذلك النور ممن تولى قيادة الإنسان ، ومن أمسك بيديه مصير الإنسان ، أى الذين نهضوا لحكومته . فإن نسي هؤلاء أنهم أئمة السعادة والنور ، وذكر هؤلاء أنهم مُسَاطُون أَشْدَاء ، تردى من يحكمون فى ظلمات الحياة ، وكان جزاؤهم أن يكرهوا مثلما يُكره التسلط الغاشم الظالم .

ومن أولى بنشر ذلك النور من عالم يحب الإنسان وسعادة الإنسان . فإن أمسك عليه عامه كان مصيره كالشجرة التى يسقط ثمرها فلا يحيا به الناس

وخير ما يُنعم به الحاكمون فى أمة على شبابها وما ينعمون به على نفوسهم من جميل — سفينة فى البحر تحمل تجارة الأمة وتحمل شباب الأمة إلى كشف حجاب الطبيعة ، فيعلمون ما يعجز عن كشفه كل كتاب ، ويقراءون ما يقصر عن بيانه كل معلم . فكل معرفة لاتأتى من صحف الطبيعة صدى ليس من ورائه حياة . وكثير منها غرور وظن . ولا يزيدهم ذلك إلا تعطشاً للدار التى شبوا فيها وحينئذ للأرض التى ولدوا فيها . فإن جاءوا ديارهم بعد هذا جاءوها بعلم وقوة ، ومنعوها وأعزوها بعلم وقوة ، ولا يسأمون تكاليف الحياة والشباب . وكيف يسأم تكاليف الشباب من الغمس مرة فى أثر السماء ، ومن كشفت قدماء الصخور التى تنفجر منها البحيرات والأنهار ، ومن ملأ عينيه بالسمات التى لا تحصى والتى تتوج رءوس الموج فى البحار ، ومن نام فى أحضان الأرض التى ولدت كل شئ وسار فى موكب الشمس التى تبصر كل شئ ونمى عقله وعزمه وساعده .

مما أنعم الله به على الإنسان نعمتان نعمة النسيان والفكر ، فكيف يخرج الفكر من النسيان أوتار فى النفس تهتر من صفو ومن صدئ ومن نعيم ومن شجى ، وترسل الزهرة الناعمة وجهاً محبوباً وسعداً ، ويوقظ الطير الوديع بدعائه وندائه أوتار السباحة والرضا ، وتطاول هذه الأوتار ما تسمع من خير الحياة الدافقة التى تهبط عند رمى العين من شاهق ، والتى تتلوى تحت قدميك فى ضمير المراعى ، والتى تتراعى ضافية حية ، فإن اعترضها صخر دفعته فإن ثبت لها الصخر جرت من حوله عن يمين ويسار وحينئذ يستوى الفكر والنسيان كما تستوى نعمة الفكر والنسيان إن ثملت الأوتار بالنعم العذب . وما تزال تتراوح هذه الأوتار من صدى إلى صدى حتى يغلبك الطرب على جمود الوقار ، وتغنى كما يتغنى من بين يديك كل شئ .

وفي ضحى الشمس نسيم تهتز في آثاره أعطاف الأشجار ، وأديم السماء صاف أزرق لا تختلط به الغيوم ، وفي وضوح النهار بياض مصفى لا تشوبه شائبة ، وسكون وسلام وأمن . . . تقودك عصاك الطيعة من ظل الشجر إلى حر الشمس فوق الصخور التي يتبدل حولها ماء السحاب جليداً ، والتي لا تبصر مكنونها العين ، والتي خلقت مهبطاً للنور . وترى عند أقصى لفتاتك لوناً لا يكاد يستقر تحت الأبصار حتى يتبدل تحت طيف الشمس شيئاً آخر ، وترسل الشمس ضوءها الوهاج في قم الصخور الباسقة في كبد السماء ، وفي أودية الثلج الأبيض الممتد بين هذه الصخور والقمم ، وتشيع الشمس صفاء لا تدركه الأبصار وسلاماً لا يبلغه السمع ، ويخرج من ثدى هذه الطبيعة كل شيء حى ، وتنسبك الطبيعة كل شيء فلا تدرك خطو الزمان الذي يترك خطوه في بعض الأرض الفناء . . . والهرم . . . ليس في قلب هذه الطبيعة هرم ولا فناء ؛ إنما ترسل هذه الطبيعة الفتوة وتثير هذه الطبيعة السعادة الكاملة التي توحى إلى النفس الخلود . فوق هذه الصخرة التي تشرف على قطع من الجليد ، والتي يبلل جوانبها ماسال من قطع الجليد العليا إر مدبية من رءوس الجبل عاتية مظلمة جرداء تعترض ضباب السحاب ، وتعترض ما وراءها من سلاسل جبال تعلو وتبحدر كأنها رءوس الموج في بحر عاصف ، وتتلون هذه السلاسل بألوان قائمة إذا حجب عنها ضياء الشمس . وإذا جلستها الشمس كشفت عمافي باطنها من مرعى أخضر تنفذ في بساطه الأخضر القاتم كتل عارية من صخور حمراء ، حتى تلتقي عند مدى العين سلسلة كلون السحاب بيضاء قد كسا رءوسها الجليد الذي تمزقه صخور سود . ويعترض مدى العين جانب شاهق يسلم العين إلى صفحة السماء التي جرى فوق لوحتها الخضر الأزرق خطوط بيض وقطع من سحاب أبيض لا تستقر في قرار وإنما تمر مترفقة كأنها على سفر ، ثم تهبط العين من شاهق السحاب إلى باطن الوادي في هاوية تخضر جنباتها ثم تكون صخوراً مجرداً . واتخذت مياه القمم سبيلها من كل منزل واطىء إلى باطن ذلك الوادي . . . ولا تسمع في رأس هذا الجبل سوى صوت مساقط الماء وهي تدوى في جوف الصمت دويًا يبدد عنقه فضاء الوادي . . .

وليس أعجب في هذا الجبل من فعل الماء . . . فهو كأنما يريد أن يغيث الناس من كل سبيل . . . فهو منبعث منطلق من شقوق الصخر ومن جيوب

الجبل . وإذا تجمع تدفق فأكل باطن الصخر ، وهوى من صخر إلى صخر ويطون الصخر الأحمر والأبيض والأسود ملساء ناعمة لا تغير من بياض السيل شيئاً ، فهو صاف لا يخفى ما في باطنه من شيء . وإذا لقي في مجراه جنديلاً من جلاميد الصخر نفر فتناثر فوق رأسه بياض شاحق من فوقه رذاذ . فإن سد طريقه الجبل أكل ما استطاع من الأرض التي يستند عليها الجبل فيسقط مجرى السيل من رأس صخر سقط مما أكل السيل ، إلى رأس صخر هوى إلى ما انحدر من السيل فهي مساقط بمضها فوق بعض في أعماق تتزايد كلما ضاقت جوانب الجبل . وكلما تجمع مجرى السيل في هذه المضائق العميقة انبعثت منه قوة لا يقف في سبيلها شيء ويتجمع في مجراه الضيق كتل من صخر موحش استقبلت سيل الماء ولم تتجرد من طبيعتها الأولى ، فهي تحمل فوق رأسها شجراً حياً هبط معها من جانب الجبل ، وكلاً أخضر ما يزال مزهراً .
والله يفر الذنوب جميعاً ، فقد مكثت عشرين يوماً أنظر في ثنايا الجبل إلى رءوس الجليد ومساقط الماء ، وأصغى إلى نفسي وإلى ما تجده من نعيم في كبد الصمت ، وإلى ما يملؤها من فيح النسيم . ومضيت جامداً لا ألوى على هذه الزهور التي تناثرت في المرعى الأخضر وعاشت في عروق الصخر الجامد حتى قالت لي فتاة ذات صباح : « اجمع لي من زهر الجبل . . . » فأني نعيم في هذه الحياة ينزل بنفوس الأحياء أنعم من هذه الساعة حين لا يبقى للنفس من شاغل سوى جمع الورد وتتبع الرياح والزهر وتلفت إلى هذا اللون الندي الأزرق الذي كسا رأس الزهر وتمایل في ظلال الجبل مع النسيم . وتتلون الزهرات بحلى دق عن كل وصف

ثم يحجب الصخر سحراً وعلماً لا يبلغه سوى القوى القوي . وإن من الصخور لصخرأ يأخذ بالألباب ويدعو بدعاء جُزُر الموسيقى التي دعت في الأساطير كل عابر : أيها العابر الغريب ، من أتنا طرب بما لم يطرب به أحد ورددناه إلى أهله بعلم . ومن جاءها هلك . ولا ينجو من التهلكة إلا من سد سمعه عن دعائها . وكذلك تدعو بعض الصخور : أيها العابر الغريب إنك لم تبلغ ضمير فتنتي وسحري ، فن أتنا طرب بصمت وسلام لم يبلغه سمع ، ورددته إلى قومه بعلم ، ورأى ليلاً لم يشهده أحد ، وشهد مطلع الشمس بسحر لا يعلمه أحد . ودون هذه الصخور كتل وأودية من جليد .

واتخذتية الجبل مغنا من قيادة الرياضيين إلى تسلق هذه الصخور .
وامتازت الرياضة في الجبل بالصبر والتمهل والتحمل . . . والطريق البعيد خير
دائما من الطريق القريب . . . وأثقلت أحمدة الرياضيين بقطع من الحديد تثبت في
الصخر وتقي من الزلل وتعصم من خفة الأحلام . وحمل الرياضيون طعامهم
وبعض ما يحتاجون إليه في حقائب يشدونها إلى ظهورهم ، وفي أيديهم عصي
تثبت في الأرض بطوق من حديد مدبب ، ولها مقابض كهياة الفأس أعدت
لترفع ما عسى أن يعترض الطريق من ثلج ، وليحفروا بها موضعاً لأقدامهم في
الصخر الأملس والجبل القائم . . . ويقضون النهار في مثاني مصعدة فوق
الصخر الجامد والعشب اللين ، ويحتازون منازل السيل ثم يقضون الليل في
أكواخ عند أقدام أودية الجليد ؛ ليبرحوها قبيل الفجر وراء الدليل إلى رأس
الجبل ، وليشهدوا مطلع النهار والشمس .

ومن لم يأخذ لهذه الرياضة أهبتها ، ولم يترود لها بالآناة والحكمة قد تزل به
قدم إلى فيج سحيق . . . وقد اخترت العزلة في مطالع الجبل على تتبع الدليل ،
ومشيت وحدي وسط النهار في مثاني معلة بخطى الداهيين ، ولم أرد أن يكون
لي صاحب يشغلني بحديثه عما أرى وما أسمع ، فقد حرصت على أن أنقض عن قلبي
في صفو السكون ما عسى أن يكون قد اكتسب من ملالة بالناس في حياة
المدن . وكما استقبلت بقلبي ما لم أكن أعلم من جمال وصحو أوت إليه الحياة
والبشر والربيع والشباب ، وقرأت في صفحة الطبيعة حكمة خفيت من قبل على
قابي ، وهي أن السعادة أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد ، وأن الله قد ألزمها
عناق الحياة حين قدر الحياة للناس ، ففسها الإنسان ونظر إلى حيث لا يشهد إلا
الشقاء يوم استمسك بأهداب الطمع الذي أذل أعناق الرجال ، وبالمال الذي شتت
الحبيبين . فن استطاع أن يستقبل بملء جفنيه متهللاً مستبشراً ثياب الفجر الوردية
ويستقبل وجه الشمس بقلب سليم ، ويشرق قلبه كما يشرق الطير المفرد في الصبح
والزهر المتفتح في مطلع النهار ، ومن استطاع أنه يعيش في الأرض تحت حر
الشمس ، فيرى عند قدمه ظله حياً مشرقاً إذا فلق الأرض وأغرس الزهر أو مشى
في مناكب الأرض إلى مغرفة وخير ، ومن استطاع أن يعمل نهاره فيثمر ما عمل
وينمو عقله وعزمه وساعده نمو الخير ، ومن استطاع أن يطلق نفسه من كل
عقال ، ويحور قلبه من كل ذل مختار ، ومن استطاع أن يسير في موكب الحياة

والشمس ، وأن يغمس قلبه في أصيل الشمس ، ولا يحدثه الليل بغيضة أو نعمة
ويحدثه بالخير أبداً ، ومن استطاع أن يجمع ما غرست يمينه من زهور
فيهدبها للتي تحبه والتي لا تريد أن تحبه ، ومن استطاع ألا يفسد صفاء الليل
بطعم وجمال النهار بجمشع — من استطاع ذلك فقد كسب نعيم الحياة جميعاً ،
وهو نعيم لم يختص الله به غنياً دون فقير ، ولا كبيراً دون صغير ، بل هو مال
مشاع من سبقت إليه يده فهو له .

على ما نظ